

الهمداني والملاحم القحطانية

ميخائيل بيتروفسكي(*)
ترجمة: موسى المظفري

تمثل الملحمة اليمنية (الملحمة القحطانية) جزءاً مهماً في الثقافة العربية الإسلامية والتراث الإسلامي العالمي، وقد أصبحت سلسلة الأساطير حول الملوك القدماء والأنبياء لجنوب الجزيرة العربية تمثل نظيراً للملاحم الهومرية للحضارات الأوروبية، فقد كانت واحدة من المظان التي تذكر فيها الأسباب القديمة للأحداث، وباعتبارها نموذجاً قديماً للمجد والشجاعة والثروة، وهي، بذلك ماضٍ يفتخر به. وقد كان اليمن القديم مكاناً كل معجزة فيه ممكنة، مكاناً يوجد فيه كل شيء جميل وغريب، وقد وجدت الحكايات القديمة عن مختلف الناس من البامير إلى القوقاز إلى نيجريا في اليمن: وكانت معظم هذه القصص تبدأ "كان هناك ملك في اليمن...الخ"

أصبحت قصة الأعمال العظيمة للحميريين تمثل مصدراً لتاريخ العرب وما قبل تاريخهم، وقد نشأ تاريخهم العلمي بجمع وتدوين وتحرير الأساطير القحطانية بنفس الأسلوب الذي نشأت به كتابة أعمال النبي وأقواله وجمعها.

(*) العنوان الأصلي: **PIOTROVSKY, Michael**. al-Hamdàni and Qatabanid Epos : *in* ABDALLAH, Yusuf Mohammad, (Ed.), ***al-Hamdàni a Great Yemeni Scholar: Studies on the Occasion of his Millennial Anniversary***.Sana'a : Publications of Sana'a University, 1986, pp. 17- 25

وقد كان يمثل هذا التاريخ الملحمي المزين بإلهام التقاليد والأساطير خلفية دينية هامة لتطوير الوعي الوطني الذاتي للعرب ككل، والوعي الذاتي العرقي لليمنيين في إطار جميع العرب من أصحاب السلالة والحضارة العربية.

لذا فإن من الشيق النظر في دور هذه الملحمة ومكانها في أعمال الهمداني بوصفه أحد الممثلين الأساسيين للوعي الذاتي اليمني. وقد كان هذا الرجل الوطني العظيم عالماً ملماً متدرباً على أساليب العلوم الطبيعية. فكيف سيتناول هذا العالم أساطير القصص الملحمية وموادها، والتي كان معظمها ذا مصادر تاريخية غير موثوقة، لم تحدث في الواقع؟.

وحتى فيما يتعلق بالعلوم الحديثة فإن القيمة التاريخية للملحمة تظل معقدة، حيث تواجهنا الكثير من المصاعب عند استخدام المادة الملحمية في الربط التاريخي. ففي التاريخ اليمني لم ننجح في ربط المعلومات التي في المنقوشات القديمة مع الملحمة القحطانية.

وقد كنت قبل فترة من الزمن أنجزت كتاباً عن تاريخ المجتمع اليمني في مطلع القرون الوسطى، والذي حاولت فيه استخدام المادة الملحمية ذات التقليد القحطاني لإنشاء تاريخ سياسي واجتماعي وديني للحميريين اليمنيين. أثناء العمل في هذا الكتاب جاءت لدي أفكار تتعلق بالهمداني والملاحم والتي أريد التحدث عنها في هذا البحث.

الأولى: فيما تتعلق بالمادة الملحمية التاريخية: وجد الهمداني علاقة متبادلة بين التحليل النقدي والاستخدام البنّاء والمبدع لهذا النوع من المادة كمرجع تاريخي، وهو أسلوب قريب من الأساليب الحديثة في الدراسات الأدبية والتاريخية.

الثانية: لعب الهمداني دوراً هاماً في جمع واختيار مواد ملحمية مختلفة في شكل نهائي والذي أصبح يعرف بالملاحم الوطنية اليمنية.

تعتبر الملحمة القحطانية أحد الأشكال التي وجدت وعاشت فيها الملاحم في الحضارة العربية، إلى جانب ملحمة أخرى عرفت بأيام العرب. وميزة الملحمة القحطانية هي الكينونة المتوازية والتطور في صيغتيها المكتوبة والشفهية، ومصادر هذه الملحمة تقع على الأساطير وقصص قبائل البدو وشبه البدو اليمنية. وقد

نقلت هذه الأساطير من سوريا والعراق ومصر وأسبانيا ، وأصبحت هذه الأساطير في هذه المناطق تمثل جزءاً من أيديولوجية الصراع بين القحطانيين والعدنانيين في القرن السابع والثامن، وكانت تمثل ماضياً مجيداً للقحطانيين، والتي أبقت على إتحاد القبائل اليمنية والسورية.

كان الاستخدام السياسي للأساطير القديمة هو الدافع وراء جمع وتدوين هذه الأساطير، ومن هنا لا يمكننا الحديث عن الأساطير غير المترابطة حول الملاحم القحطانية. هذه الملحمة هي مكتوبة في كتاب التيجان لوهب بن منبه وابن هشام وكتاب أخبار عابد بن شاريا" وكتاب أخبار الملوك" وسيرة داقفال الشيباني....الخ، ولهذه الملحمة بصمة واضحة جداً للاهتمامات السياسية للقحطانيين.

لا تحتوي الملحمة البطولية على سجل للحقائق التاريخية كهدف سياسي لها، فهي تسلي وتعلم وتمدح، وكان الهدف الأساسي للملحمة القحطانية هو مدح القحطانيين، لتظهر كيف كانوا أفضل من أعدائهم العدنانيين، العرب الشماليين. ولهذا السبب غيرت كثيراً من المواد الأصلية شكلها ومضمونها، وتم جمع هذه المادة بعيداً من اليمن وتم تغيير الكثير من الأشياء دون غرض.

وبهذا الشكل رجعت الملحمة القحطانية إلى اليمن في القرون الثامن إلى العاشر، وبدأت تحيا حياة جديدة بجوار مصادرها الأصلية، فبعد أن أصبحت تشكل مرة أخرى ما قبل التاريخ بالنسبة لليمنيين أصبحت مصدر فخر لهم قبل قدوم الوافدين الذين كان عددهم كبيرا في وسط اليمن. وهناك أصبحت الملاحم بالفعل يمنية وهنا أخذت شكلها النهائي والتي كتبها نشوان الحميري.

يقف الهمداني في منتصف هذه العملية بين الملحمة القحطانية السورية والملحمة القحطانية اليمنية. ليس لدينا تلك الأجزاء من الإكليل التي تتناول السرد التاريخي والتي ينظر الواحد فيها إلى المكان الأول للمادة الملحمية. ولكن يستطيع المرء أن يأخذ انطباعاً جيداً عن الأعمال الأخرى للهمداني وكيف تناول الهمداني أساطير الملحمة القحطانية.

كان الهمداني على معرفة جيدة بالقصص الملحمية والأساطير الخاصة باليمن القديم، وقد كان مهتماً بجمع الكثير من الأشياء الرائعة والغريبة والخيالية، وكغيره من العلماء فإن الهمداني يدرس القصص الأسطورية محاولاً أن يفهم الدوافع والأسباب الممكنة لتشويه التاريخ وتحريفه.

عنوان الجزء الأول من كتاب الإكليل هو " تحذير من المعلومات غير الصحيحة والقصص المستحيلة"، ويوضح هذا الجزء أن المؤلف قد خصص اهتماما كبيراً من أجل تحليل خاص لصحة المعلومات التي حصل عليها. ويفرق الهمداني أيضاً بين نوعين من القصص: تلك القصص التي كانت مشوهه عمداً أو أعاد صياغتها علماء سياسيون، وشعراء (وهي باطلة غير صحيحة)، وتلك القصص المستحيلة (وهي الحكايات الخيالية، والقصص الوهمية التي اختلقها بعض المبدعين: أيْ الفولكلور).

وكان الهمداني دائماً حريصا جداً على تحديد مراجعه وهو أمر ملازم له من بين المؤرخين العرب، غير أنه أيضاً يصنف هذه المراجع إلى مجموعات مختلفة، موضحاً في هذا التصنيف موقفه إزاء هذه المراجع. فعلى سبيل المثال عندما يتحدث عن قصة (قيل ذو نفر) الذي أراد منع حملة أبرهة ضد مكة (الإكليل، الجزء العاشر ص 25) يؤكد الهمداني أن هذه أعراف القرشيين وأبناء فارس. وهذا يعني أن التقاليد اليمنية الأصلية كان صامتة إزاء ذلك. ويؤكد أيضاً أن الأصل الحجازي في أساطير بلقيس وذو بطاء (كتاب الإكليل الجزء العاشر 25) وبقية المواد الملحمية من خارج اليمن.

والنوعِ الثاني من الملاحم يأخذه الهمداني من الجزء الأساسي للملحمة، وكان غالباً ما يستشهد بالقصائد من سلسلة أسعد الكامل وغيره، ويقدمها الهمداني مباشرة دون الإشارة إلى المصادر، وهذا يعني أنه استخدم معلومات شائعة من التراث الشعبي لليمنيين في أيامه. وكان أحياناً يقدم المادة الملحمية والأسطورية مشيراً إلى بعض الأسماء لبعض الناس من ذوي الأصل القبلي غير المعروف (كتاب الإكليل الجزء العاشر 15- 16) ويستشهد في هذا المكان بأعراف قبائل معينة غير مألوفة في الملحمة القحطانية. وقد استخدم الهمداني الجزء الكبير للمادة الملحمية في الصيغة الثانوية من قصائد علقمة ذو جدن والذي يبدو أنه شكل مرجعا مهما بالنسبة للهمداني.

وإذا تمعنّا في الأسلوب الذي به استخدم الهمداني كافة أنواع المادة الملحمية فإننا نرى شيئاً كثيراً من المنهج التحليلي، فتارة يحذف بعض الأساطير المشكوك فيها (على سبيل المثال – أساطير ارم) ويتحدث بلغة قوية جداً عن عدم مصداقية الكثير من القصص الأسطورية وخاصة عن علماء الأنساب الذين

اخترعوا أساطير مزيفة ليؤكدوا صحة التغييرات التي كانوا يختلقونها في قائمة السلالة التي تربط القبائل اليمنية بأحفاد سيدنا إسماعيل.

ونجد المنهج التحليلي للأساطير والقصص الملحمية في الكثير من الأعمال التاريخية في القرون الوسطى، لكن الهمداني يذهب بعيداً فهو يحاول أن يوضح متى ولماذا حدث هذا التشويه للتاريخ، لذا فإن تحليله لم يعد فقط هاماً بل أصبح ثقافياً وتاريخياً. فعند حديثه عن الأنساب والتي هي جزء من الملحمة يقول الهمداني أن المشوهين الرئيسيين كانوا علماء الأنساب السوريين والعراقيين ويؤكد ذلك بمقارنة معلوماتهم بالمعلومات والقوائم (الزبر) التي وجدت لدى القبائل القحطانية اليمنية الأصلية (كتاب الإكليل، الجزء العاشر ص30). ويوضح لنا أيضاً أن دوافع التزييف قد فسرها هؤلاء على أنها تشكل تحالفات سياسية جديدة من أجل ربط الأنساب اليمنية مع أجداد العرب الشماليين (كتاب الإكليل الجزء العاشر ص 30، الجزء الثامن ص 122).

ولكن الهمداني يذهب بعيداً، أيضاً، فيحلل أحداثاً تاريخية أخرى سببت التشويه في تاريخ الأنساب اليمنية، ويؤكد الهمداني أن مراحل التشويه هذه مهمة جداً لفهم الصورة الكلية للتقليد الثقافي ولفهم تراث الحضارة اليمنية القديمة ، وهذه المراحل حقيقية وإن مما يؤكد أهميتها الثقافية معرفتنا التاريخية.

أولى هذه المراحل في عهد (بختنصر)، كما في التراث الشعبي العربي القديم، وفي بعض أجزاء كتاب (دانيال)، حين يقف (بختنصر) مع (نابونيد)، ذلك الملك البابلي الذي قام بحملات عسكرية في الجزيرة العربية ومكث هناك لسنوات وأسس بعض المدن والمعاقل العسكرية في شمال الجزيرة العربية، ولذا فقد قام بالكثير من التغييرات في المجتمع البدوي وفي أنسابهم وتقاليدهم الثقافية والاجتماعية.

والمجموعة الأخرى من الأساطير العربية (أفضل وصف في معجم البكري) تربط بـ(بحتنصر) قصة الحركات القوية للقبائل والتي كانت نتيجة للطابع البدوي للجزيرة العربية ، وما كان لها أيضا من تأثير على حالة الجزيرة العربية واليمن، وما لعبته من دور في قطع خط التراث الثقافي لجماعة حضرية من الناس.

والمرحلة الثانية التي يوضحها الهمداني: عهد ما بعد (أسعد الكامل) الزمن الفعلي للاضطرابات، وهو العهد الذي انقطعت فيه السلالة التقليدية وبها

انقطعت التقاليد الشعبية التاريخية. وقد كان هذا هو العهد الذي استبدلت فيه التقاليد الملحمية للحميريين بتقاليد البدو.

ثم يوضح الهمداني أن الحجم الرئيسي للتزييف والتغييرات المقصودة حدثت في عهد الإسلام، نتيجة للصراع السياسي بين المسلمين في سوريا. وكان هذا، كما نعرف الآن، العامل الرئيسي في تطور الملحمة القحطانية ذات الاتجاه السياسي.

وكما نرى فإن الهمداني يقدم برنامجاً تحليلياً لتطوير الملحمة اليمنية، برنامجاً يصف فيه كل أنواع النفوذ الخارجية التي أدت إلى حال وشكل الملاحم حتى وصلت إلى أيام الهمداني وقد كان تحليل الهمداني قريباً جداً من الطرق والعلوم الحديثة.

وقد كان الهمداني يستخدم الملحمة كمادة ملحقة بالنقوش، وكمادة أساسية؛إذ لم يكن لديه غيرها. والمادة الملحمية دائماً ما تبرهن بمادة أخرى: بالنقوش والسجلات القبلية التي تدعى بالزبر، وبالمنطق التاريخي العلمي ، وقد كان الهمداني يستخدم الأساطير في معظم الأحيان ليس فقط للرواية ولكن ليؤكد أسماء الأشخاص وعلاقاتهم، ويقدم تحليلاً تاريخياً لغوياً وبخاصة للشعر.

ونستطيع أن نوضح هذا التحليل المعقد بمثال في بداية الجزء العاشر من كتاب الإكليل، فبعد معلومات حول نسب (الحان نحفان)، تأتي قصة توضح علاقة (الحان) بالتاريخ العالمي، والتي تروي بأن (الحان) الذي كان اسمه (بطاء) كان معاصراً لسيدنا يوسف عندما كان سيدنا (يوسف) يحكم مصر، حيث أعطى والد (الحان) اليمنيين إرشادات حول الري بالآبار.

وبعد هذا جاء مثل الحميري معطياً اسم السد، ثم جاءت نصوص بعض النقوش تذكر أسماء (الحان) و(نحفان) في صنعاء وعمران، وفيما يتعلق بنقوش عمران يقدم الهمداني معلومات حول نظام الكتابة في جنوب الجزيرة العربية حاذفاً الألف في حرف المد (آ) (ص 16- 17)، ثم تأتي بعض النقوش لتذكر أسماء الملوك، وفي صفحة 19 يذكر بيت من الشعر الملحمي، يذكر أنه لـ(أسعد الكامل). ويذكر الشعر الملك (الحان)، ويعلق الهمداني على هذه الغرابة حيث يشرح الهمداني من وجهة نظر البلاغة العربية أن هذا البيت الشعري لـ(أسعد الكامل) يمكن أن يفهم على أن هناك ملكين وليس واحدا.

وفي هذا النقطة يخطئ الهمداني، حيث أنه لم يكن إلا ملكا واحدا فقط باسم متشابه (الحان نحفان)، ولكن هذا ليس مهماً، فهذا الخطأ يبين لنا بوضوح الطريقة الصحيحة التي استخدمها الهمداني فهذا الخطأ ليس نتيجة هذه الطريقة وإنما كان بسبب المعرفة الضعيفة عن النقوش. وبشكل عام فقد استخدم الهمداني النقوش بشكل صحيح ليثبت أن الكلمات لكتاب مختلفين. وتلك الكلمات المكتوبة هي بالنسبة للهمداني الأقرب إلى الحقيقة. ويستشهد الهمداني بمصادر مختلفة، ولكن مصدره الرئيسي النقوش والمراجع اليمنية المحلية الأصلية.

وهناك أمثلة أخرى توضح طريقة استخدام الهمداني للملاحم والتي يمكن العثور عليها في الجزء الثامن من كتاب الإكليل. والحديث عن القلاع والقبور يأتي في نهاية الملحمة لتغطي الفجوات وتحيي القصة، وقد استخدم الهمداني مادة لا يمكن تكذيبها وكان دائماً يحاول إثبات صحتها.

تحتوي أعمال الهمداني التي وجدت إلى حد الآن بعض الأجزاء فقط من الملحمة القحطانية ولكننا أيضا نرى أن الهمداني يضيف إليها بعض الأجزاء التي لم تكن موجودة في الملحمة القحطانية، وكانت هذه الأجزاء غالباً ما تظهر في القصص والملاحم القحطانية بعد وفاته، وقد أضاف الهمداني إلى الملحمة بعض المواد الملحمية التقليدية اليمنية والتي حذفت من الملحمة السورية.

وهناك نوعان من هذه المادة القديمة الحديثة. النوع الأول: الأساطير المختلفة للشخصية القرآنية والتوراتية، والتي استخدمت ربط التاريخ اليمني بالتاريخ العالمي، وهناك مثال جيد على ذلك وهو العلاقات بين الملوك الهمدانيين ويوسف عليه السلام (كتاب الإكليل الجزء العاشر ص11). وقد رأينا قبل الهمداني أيضاً كيف حاول العديد من الكتّاب ربط اليمن ببعض القصص من القرآن والكتاب المقدس (كوهب بن منبه وآخرين)، ولكنهم كانوا يبدأون بقصص القرآن والكتاب المقدس محاولين نقلها إلى اليمن.أما بالنسبة للهمداني فقد كان يبدأ بقصص وأساطير يمنية الأصل محاولاً بذلك أن يدمجها في التاريخ العالمي، والفرق بين هاتين الطريقتين يبدو ضئيلا، غير أن طريقة الهمداني تؤدي إلى الحفاظ على مادة ملحمية أصيلة وهامّة جداً.

وثمة نوع آخر يتبدى في مادة جديدة من الشعر الملحمي بإمكاننا أن نراه في سلسلة أسعد الكامل. وقد استخدم الهمداني ثلاث مقطوعات من هذه السلسلة والتي لم تمر بنا من قبل. يذكر الهمداني في كتاب الإكليل الجزء الثاني ص57 بيتاً من الشعر من القصيدة التي كان يسميها (رويرت نيكولسون) "قصة الثلاث الساحرات": رويرت نيكولسون- التاريخ الأدبي للعرب ص ؟، وهي قصة فولكلورية تقليدية خالصة ذات دوافع اعتيادية تشبه قصة مكبث وتأتي من التقاليد الشعبية لمنطقة همدان. ونجد النص الكامل في التعليق على قصيدة نشوان (عقيل ص 119- 121) وهي القصيدة اليمنية الأصيلة ذات التقاليد الشعبية في سلسلة أسعد الكامل.

وهذه القصيدة مرتبطة مع "برهان أسعد" والذي يظهر بصورته الكاملة لأول مرة في أمالي الهمداني (كتاب الإكليل الجزء الثاني ص 291- 293)، وهي أيضاً قريبة من التقاليد الشعبية وذات نزعة قحطانية سورية. ويحتوي كتاب الإكليل الجزء الثاني صفحة 388- 390 على نسخة دقيقة من قصيدة أسعد والتي عنوانها "الحميريون شعبي!!" وهي تقدم الكثير من الأسماء الحقيقية للملوك الحميريين من سلالة (ذمار اليعبري) و(ذران اليعبري)، والتي ذكرت في أجزاء أخرى من الملحمة القحطانية.

لذا نستطيع أن نختم بالقول إن الهمداني يطور الملحمة القحطانية بالتحليل التاريخي الثقافي وبالمادة الملحمية الجديدة ذات الأصل اليمني. ونتيجة لذلك أصبحت الملحمة القحطانية بعد أن عادت إلى اليمن من سوريا أقرب إلى الجذور اليمنية وأصبحت فعلاً ملحمة اليمن، بعد أن طورت بوصف كونها شكلا مكتملا حتى عهد نشوان.

لذا فقد قدم الهمداني (الرجل الذي تجتمع عنده عصور اليمن الوسيطة والقديمة) إسهاماً كبيراً في تشكيل الأساس الأيديولوجي الثقافي للنزعة الوطنية اليمنية. وقد كان دوره في تجديد الملحمة اليمنية يمثل جانبا مهما من جوانب نشاطه الاجتماعي والعلمي.